



منتخبات من قصائد

پیکر

منتخبات من قصائد غوستابو أدولفو بيكر

اختارها وكتب مقدمتها
خواكين بنيتو دي لوكاس
نقلها الى العربية
كمال فوزي الشرايبي - سامي ديب - جورج سرحان

مقالة افتتاحية بقلم
نزار قباني

مدير المعهد الاسباني العربي للثقافة

١٩٦٦

تمهيد

نشأت فكرة هذه الترجمة العربية لجزء من (قصائد) بيكر، عن
الامسية الادبية التي اقامها المركز الثقافي الاسباني بدمشق في شهر ايار
من عام ١٩٦١، تكريما لذكرى شاعر اشيلية.

جرى الكلام، في تلك الامسية، عن بيكر، وعن مكانته كأول
شاعر محدث في الادب الاسباني المعاصر، وبالتالي عن اهمية انتاجه.
وقد قرأ طلاب الاسبانية في المركز المذكور، بصورة نالت الاعجاب،
عدة مقطوعات من (القصائد) باللغتين الاسبانية والعربية. ونظرا للاهتمام
الكبير الذي اثارته هذه القراءة، لا يبين من قاموا بادائها فحسب، بل
بين جمهور المستمعين ايضا، وقد فكرنا في زيادة عدد (القصائد) المترجمة،
وفي وضع مقدمة لها نتحدث فيها عن بيكر، ثم فكرنا في طباعتها.
وان يكن جزئيا، ليضعها في متناول اي قارئ عربي يتوق اليها. وقد
عمل فرع الادب الاسباني، في المركز الثقافي المذكور، خلال دورته
العام ١٩٦١ - ١٩٦٢، واضعا هذا القصد نصب عينيه.

الا ان هذه المحاولة ليست سوى خطوة اولى نحو فكرة اكثر
طموحا، اذ اننا فكرنا، فور الانتهاء من ترجمة هذا الجزء من (قصائد)
بيكر، في ان نتبعها بترجمات لشعر (انتونيو متشادو Antonio Machado)

و (اونامونو Unamuno) و (خوان رامون خيمينيث Juan Ramón Jimenez) حتى الوصول الى الجيل الشعري الكبير المسمى بجيل الـ ٢٥ ، هذا الجيل الذي نقلت الى العربية بعض اجزاء من انتاج شعرائه امثال (غارسيا لوركا García Lorca) و (رافائيل اليبرتي Rafael Alberti) و (بيشنته اليكساندره Vicente Aleixandre) و (خيراردو ديبغو Gerardo Diego) و (خورخه غيين Jorge Guillén) وينبغي علينا الا ننسى (داماسو الونسو Dámaso Alonso) و (لويس ثرنودا Luis Cernuda) و (اميليو برادوس Emilio Prados) وبهذا العمل يمكننا تعريف قراء العربية، على نطاق واسع، بالشعر الاسباني المعاصر. ونأمل بان تتيح لنا السنون القادمة امكانية تحقيق هذه الرغبات بصورة مرضية.

لؤلؤة شعرية نادرة

بقلم: نزار قباني

القائم باعمال سورية في مدريد

عند ما وصلت الى اسبانيا في صيف عام ١٩٦٢ كنت اتجول في أزقتها الضيقة كطفل يبحث عن مكان ميلاده.

كنت ابحث عن حكايات حب قديمة مخبئة خلف خصاص الشبايك وشقوق الابواب وتحت الاشجار وبلاط الادراج الرخامية وأصص الزرع النائمة على كل نافذة اسبانية.

كنت ابحث عن تاريخي مكتوباً على أوراق شجر التاريخ.. على حدقات عيون الاندلسيات.. على مراوحن.. ضفائرن.. على أقراطهن نواقيس الذهب والنار.

وعند ما بدأت اتغلغل في ضمير الاشياء الاسبانية، في جلدها.. في لحمها.. في ادب ادبائها وشعر شعرائها.. ادركت عمق التشابه بيننا وبين اسبانيا. سماواتها تشبهنا.. احزانها تشبهنا. طبيباتها.. نزعتها.. مزاجها الملتهب.. طريقة حبها وكرهها.. تشبهنا.. دقات قلبها السريعة تشبه دقات قلبنا..

واذا كانت ملامح اسبانيا الخارجية والنفسية تشابهنا الى هذا الحد.. فلماذا لم يحظ الادب الاسباني باهتمامنا ولماذا لم تترجم روائعه بالنسبة للاداب الاخرى. ان الادب الاسباني زهرة ياسمين شرقية تحمل عبق الشرق ونكهته وحرارة شموسه. وهو في نظري لا ينتمي الى اوربا بقدر ما ينتمي اليها.

وهذا ما يدفعني الى ان أسأل:

أين اسبانيا في ادبنا العربي؟

يكاد العربي لا يعرف من الادب الاسباني سوى وجه (دون كيشوت) و (ولوركا). ولكن اسبانيا ليست (سرفنتس) و (ولوركا) فحسب ان فيها جيلا من الشعراء والادباء لا يزالون بالنسبة اليها في منطقة الظل.

لذلك اسعدني وراح خاطري ان اعلم ان المعهد الاسباني العربي في مدريد أعد برنامجاً طموحاً لمنشوراته القادمة يهدف الى اصدار ترجمات باللغة العربية لمجموعة من أرق شعراء اسبانيا الذين يمثلون وجه الشعر الاسباني المعاصر اصدق تمثيل. وبهذا العمل الكبير يسهم المعهد الاسباني العربي في مدريد في نقل الاعمال الهامة من الادب الاسباني الجميل الى القراء العرب.

وبعد.. فان فرحتي برؤية غوستابو ادولفو بيكر مترجماً الى اللغة العربية فرحة طفل وجد لؤلؤة داخل حجارة.

فبيكر لؤلؤة نادرة في خزانة الادب الاسباني. لؤلؤة من هذه الآلي التي بقيت سنيماً غارقة في قاع المحيط. حتى اذا وقعت في شباك صيادي اللؤلؤ ذات يوم أذهلهم لمحها وتوهجها.

تسع وسبعون قصيدة.. وأربعة وثلاثون عاماً.. ورثة مثقوبة..

وسقط هذا العصفور الاشبيلي الذي كان يحمل في عنقه من الاحزان اكثر مما تحمل حقول الاندلس من غيب وزيتون..

وكل العصافير المجوهرية الحناجر.. الفزحية الاجنحة.. التي تهاجر الى المدن الكبرى فيخترقها فحم المداخن.. وأسفلت الشوارع المزدهمة.. قتلت المدينة غوستابو ادولفو بيكر بالحدود واللؤم وعدم المبالاة.

ليس في المدن الكبرى مكان للعصافير النادرة. هذا شيء أكيد. فمن اخلاق المدن الكبرى أن تصلب موهوبها على اعمدة النور.

لم تكن القصيدة عند بيكر قلعة من حجر الغرانيت. ولا بناية شاهقة من الفصاحة والايقاع الملحمي، وانما كانت صلاة موجزة وتمتمة خافتة الرنين تنبع من القلب لتدوب في القلب.

كانت كلماته اشبه بالتيار العالي التوتر، اشبه بنزيف جرح طازج، لذلك رفضه عصره لان بساطة التعبير لديه لم تكن تأتلف مع رومانسية الشعر الاسباني في تلك الحقبة بادائها المسرحي ومساحيقها اللغوية المبالغ بها.

من هنا كان اتهام بيكر بالركاكة والعاطفة المريضة. وهذا يذكرني بما تعرضت له حركة الشعر العربي الحديث من الاتهامات من جانب المتزمطين لأنها اعتمدت لغة الهمس والحديث اليومي وحررت اقدامها من قوالب الرصاص الثقيلة التي كانت تعيق حركتها.

وانتصر بيكر - بعد موته مع الاسف - على تزمت عصره وتعصبه، وأصبحت الشبيبة الاسبانية تردد أناشيده كأنها كلمات كتاب مقدس..

تسع وسبعون زهرة.. هي كل ماتركه هذا الشاعر الحزين وراءه.. ولكنها كانت كافية لتعطر بستان الادب الاسباني كله بعطر لا يشبه ابي عطر آخر.. كلمات ناعمة ودافئة واليفة ترقد بين راحتك كسرب حمام ابيض:

اليوم
تبسم لي الارض والسموات
اليوم تدخل الشمس الى أعماق أعماقي
اليوم. رأيتهما.. رأيتهما.. ونظرت الي.
اليوم بدأت أو من بالله

•
ما هو الشعر ؟
تسأليني . وحدقتا عينيك الزرقاوين
مزروعتان في صدقي عيني
ما هو الشعر ؟
أأنت التي تسألين ؟
الشعر هو أنت.

•
التنهدات هواء، وتذهب مع الهواء
والدموع ماء.. وتذهب الى البحر
ولكن اخبريني ايها المرأة..
إذا انتهى الحب..
فألى أين يذهب ؟

طيور السنونو السوداء
ستعود
لتبني على شرفتك اعشاشها
وتضرب من جديد على نافذتك باجنحتها
وهي تلعب.
ولكن الطيور التي كانت تتمهل في طيرانها
لتأمل جمالك وسعادتي
والتي تعلمت اسمينا..
تلك.. لن تعود ابداً.

•

طالما توجد عيون تعكس العيون التي تنظر اليها..
وطالما هناك شفة.. تجيب على التهنيد بالتهنيد
وطالما يوجد على الارض امرأة جميلة..
فسيجد شعر..

•

نعم.. نعم سيجد شعر على هذا الكوكب. طالما ان هناك شعراً يعطون الشعر
حياتهم بلا تردد.. كما فعل غوستافو ادولفو بيكر..

نزار قباني

مقدمة

حياته - تميزت حياة غوستابو ادولفو بيكر بطفولة حزينة، وشباب أمل، وموت مبكر. ولد في اشبيلية عام ١٨٣٦ ومات في مدريد عام ١٨٧٠: حياة قصيرة تنبئنا بأن بيكر قد مر في هذا العالم كنيزك احترق بنار رغبته المتشوقة الى الابدية:

في بحر الشك الذي أخرج
لا اعلم حتى بماذا أو من .
ومع ذلك، تقول هذه الرغبات لي
بانني احمل هنا، في داخلي،
شيئا الهيا .

امضى بيكر ايام شبابه حتى التاسعة عشرة في اشبيلية. وهناك درس الاداب الاولى، وتعلم الرسم برفقة اخيه (باليريانو Valeriano) الذي اصبح رساما معروفا من رسامي القرن التاسع عشر. وادت مكتبة (السيدة مانويلا موناهاى Doña Manuela Monahay)، عرابة بيكر، دورا هاما في تكوين الشاعر، اذ كانت هذه السيدة قد اخذت على عاتقها تربية بيكر عندما اصبح يتيما. في هذه المكتبة قرأ بيكر

(شاتوبريان Chateaubriand) و (مدام ده ستئال Madame de Staël) و (بايرون Byron) و (موسيه Musset) و (هوغو Hugo) و (اسبروثيدا Espronceda (١)) هذه المطالعات بالاضافة الى نزهاته على ضفاف نهر الوادي الكبير، ملأت نفسه طموحا. وسرعان ما ذهب الى مدريد سعيا وراء المغامرات الادبية.

وصل بيكر الى مدريد عام ١٨٦٤، وهي ما تزال باب القدر المفتوح الذي يلجه كل الذين يظنون انفسهم مؤهلين لقيادة سفينة موثوقة بالاحلام الادبية. على انه لا يكفي المرء ان يكون شاعرا كبيرا، بل يجب عليه بشكل خاص ان يظهر بمظاهر الشاعر الكبير، مما لم يكن يبدو على بيكر. وهكذا مرت قصائده القصيرة، البسيطة العميقة، المجددة، خلال شعر اواسط القرن التاسع عشر الاسباني المتألق الفخم، دون ان يشعر بها احد.

كانت حياة مدريد صعبة جدا على بيكر، فقد عاش السنوات الاولى في بؤس الى ان توصل الى العمل مترجما ومنشيء مقالات في احدى الصحف. وكتب ايضا بعض المسرحيات بالتعاون مع مؤلفين آخرين - وكانوا رفقاءه في السراء والضراء - بغية زيادة دخله. وفي عام ١٨٥٧ اصيب بمرض السل، وبدأ يشعر بطلائع آلام هذا المرض الذي قدر له ان يقوده الى الموت، غير انه عاد مع ذلك الى كتابة المسرحيات والى العمل في الصحف.

سافر غوستابو برفقة اخيه فزارا اهم المدن الاسبانية كطليطلة وصوريا وغيرها لدراسة آثارها، ثم تزوج في عام ١٨٦١ بـ (كاستا

(١) خوسيه اسبروثيدا - اديب اسباني، مؤلف كتاب (El Diablo Mundo العالم الشيطاني) ولد عام ١٨١٠ وتوفي عام ١٨٤٢.

استيبان (Casta Esteban) وكانت امرأة متوسطة الثقافة لم يستطع ان يجني معها ثمار السعادة. وكانت سنوات حياته الاخيرة سنوات بؤس وتعب وقرف. وقد عبر عن ذلك بقوله:

(انني راغب في الحياة طبعاً ... على ان تكون حياة منعزلة وسعيدة بقدر الامكان، وخالية من الرغبات ... حياة بلا قلق وبلا طموح ... اتمنى ان اكون ممثلاً تافهاً في مهزلة الانسانية الكبرى).

وعاش آخر سني حياته في هذه الحالة اليائسة . وفي خريف عام ١٨٧٠ اختفى من الوجود. ولم تشر الى موته الا صحيفتان هما (العصر La Epoca) و (الرأى الوطني La Opinión Nacional) بثلاثة او اربعة اسطر. وما قاله هذا الشاعر المنسي عن امرأة، كان بإمكانه ان يقوله عن عصره ايضاً:

لم اعجب من نسيانك لي،
لان ما في ذاتي من شيء ثمين،
لاستطيعين
حتى ان تشعري به.

قصائده
تقتصر مؤلفات غوستابو ادولفو بيكر الشعرية على ديوان واحد دعي به (القصائد). ولا يحتوي هذا الديوان، كما تحتوي مؤلفات شعراء آخرين - على كتابات اولية وناقصة ومتردة - قد تكشف يوماً من الايام عن شاعر جديد، بل ان ديوانه، الذي نشر بعد وفاته، كتاب يتسم بالنضج والعمق والنهاية. وكل قصيدة من قصائده التسع

لا تنطوي على الاصالة والجمال فحسب، بل على عاطفة عميقة تسري
حرارتها الى القارئ سريان الشرارة الكهربائية. ومع ذلك، يبقى من
غير المؤكد بان بيكر شاعر حساس وعاطفي فحسب، كما يصوره لنا اول
نقد وجد عن مؤلفاته، اذ ان في شعره نعومة ترفعه عن مستوى البلاهة
او السطحية. انها نعومة مفاهيم وافكار - وان تكن غير واردة دوما -
كتلك التي نجدها في لغة معبرة وغنية (وهذا طبعا ضمن حدود لغة
بيكر الضيقة كما هي الحال مع انتونيو متشادو Antonio Machado).
هذه المفاهيم والافكار تجعل من شاعرنا اوضح سابقة للشعر الذي يدعوه
داماسو الونسو Dámaso Alonso بـ «الشعر المقتلع الجذور» والذي يحمل
لواءه (بلاس دي اوتيرو Blas de Otero).

وعلى سبيل المثال نورد مطلع القصيدة ذات الرقم ٦٢:

ان هذا الهيكل المصنوع من العظم والجلد
قد تعب اخيرا
من التجوال برأس مجنون ...

امام هذه الابيات العنارية التي تصور لنا هيكلا عظيما - اذ ان
تعبير (رأس مجنون) يعني هنا (جمجمة) - هل هناك من يستطيع ان
يقول ان (القصائد) هي شعر ناعم فحسب؟ ان في قصائد بيكر نسبة
كبيرة من العاطفة، الا انها ما تلبث ان تختفي ليحل الشاعر محلها
سخرية غامضة او يأسا بلغ من الفخامة حدا لم يستطع النقاد القصيرو
النظر ان يدركوا كنهه، فالتبس امره عليهم، ورأوا فيه عاطفة مريضة.
فالقصائد اذن مركب عميق من صور نقية تؤثر في عيوننا وقلوبنا
كلما تلونهاها.

اصالة القصائد: كانت اصالة قصائد بيكر احد المواضيع التي حمي وطيس النقاش حولها.

عند ما نشر بيكر أوالى قصائده، التي ظهرت مبشرة في مختلف الصحف والمجلات في عصره، اسماها معاصروه (بالتنهيدات الالمانية) وكانت هذه التسمية تنطوي على استهزاء ظاهر، وتعطي الازهان فكرة بأن شعر بيكر كان عبارة عن سرقة ادبية رخيصة لقصائد الشاعر الالمانى (هنريخ هايني Heinrich Heine)، ومنذ ذلك الحين، والى ما قبل السنين الاخيرة، لم يعرف شاعرنا لدى الكثيرين من النقاد الا بانه الشاعر الالمانى (هايني) مترجما الى الاسبانية.

ولكن التأثير المباشر لم يأت من هايني وحده، بل اتى - كما يؤكد (وليم هندريكس (1) William Hendrix) - من شاعر آخر كان المهمل الوحيد، او الاكبر على الاقل، لوشي بيكر، ونقصد (بيرون Byron). وفي هذا المجال لابد من ذكر تأثير الشعارين (لامارتين Lamartine) و (موسيه Musset)، الى جانب بعض المؤثرات الجزئية من قبل بعض معاصري بيكر من الشعراء الاسبان امثال (خوسيه ماريا ده لاريا José María de Larrea) و (اوغوستو فيران Augusto Ferrán) و (داكاريتيه Dacarrete) على ان ما يدهشنا في هذا الامر ان اصالة بيكر بقيت سليمة دوما، بالرغم من جميع المؤثرات التي يمكن العثور عليها في اشعاره.

بيكر وعصره: ومع الاستمرار في دراسة حياة بيكر واعماله، ازداد التفهم لمعانيه في نطاق الشعر الاسباني. ويتوافق وقت تأليف (القصائد) مع الفترة الاخيرة للرومانتية الاسبانية.

(1) راجع د. الونسو Dámaso Alonso في مقاله (اصالة بيكر) الوارد في كتاب (الشعراء الاسبان المعاصرون Poetas españoles contemporáneos) مدريد ١٩٥٣ صفحة ١٤.

فَعدَما فُقدت الأشعار الرومانتية الأولى قوتها وموسيقاها، نشأ في الشعر الأسباني طراز جديد من العاطفية العميقة. وكثيرون هم الشعراء السابِقون لبيكر الذين نستطيع أن نجد لديهم، مع تفاوت في الوضوح، جزءاً من صفات أشعاره. ويستنتج من ذلك أن أشعاره ليست منعزلة ضمن إطار تاريخي سلبي، بل على العكس تماماً إذ نجد بيكر يصور لنا الأمثال العليا للشعر العاطفي الأسباني في أنقى معانيها وأكملها، هذه الأمثال التي نشأت في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، ووصلت بخطى مرتجفة إلى أوجها بعد ثلاثين عاماً. (١)

تأثير بيكر: إن الشعر العاطفي الودي (Intimista) وهو آخر اختبارات الرومانتية الأسبانية، يصل إلى ذروته مع بيكر، إلا أنه لا ينتهي بانتهائه. ويمكن العثور على الآثار التي تركتها قصائده في أشعار الشعراء الذين خلفوه.

فقد لجأ (انتونيو متشادو Antonio Machado) و (خوان رامون خيمينيث Juan Ramón Jiménez) في هروبهما من صخب المدرسة الحديثة إلى عالم بيكر العاطفي واستخرجا منه، أن لم نقل جميع مؤلفاتهما، فعلى الأقل أكبر قسم منها وأكثرها قيمة في رأينا، وهكذا فإن متشادو في كتابه (دهاليز الروح Galerías) وخوان رامون خيمينيث في جميع مؤلفات مرحلته الأولى (١٩٠٠ - ١٩١٦) قد نهلا من ينبوع بيكر العاطفي دون أن يتخليا لحظة واحدة عن كونهما شاعرين يملكان أصالة كبيرة.

(١) راجع خوسيه بدرو دياس في كتابه (غوستابو أدولفو بيكر: حياته وشعره) مدريد ١٩٥٨. أنظر أيضاً كتابين جديدين عن الشاعر وهما (بيكر) لريكا براون، برشلونة ١٩٦١. و (محاولة مراجعة مرتبة لغوستابو أدولفو بيكر) لروبين بينيث، بوينس آيرس ١٩٦١.

وينتصب شبح بيكر ايضا بين رجال الجيل المعروف بجيل ١٩٢٥ .
بالايحاء والتعبير. وعلى ذلك يقول الونسو (١)، وهو ناقد وشاعر من
الجيل المذكور: عند ما يرغب المرء في تفسير اعمال البرتي على احسن
وجه، وفي تفسير جزء من اعمال لوركا، الا يمر في خيلته، خلال افكار
الشعر الشعبي، شبح اشعار بيكر؟.

ويغدو صوت بيكر ناعسا يغمر الالم (كما عند مانويل التولاغيره
Manuel Altolaguirre) او نابضا بالحنين الى الوطن ومغرقا في النعومة
(كما عند لويس ثرنودا Luis Cernuda) او يرتجف حتى يدور في
دوامة - كما نجده في اواخر اشعار البرتي وعند الكساندره ايضا - .
ومهما يكن من امر، فقد عاد الشعر في الجيل التالي، بتأثير ردة
فعل من الواقعية المتطرفة لبعض شعراء جيل ال ٢٥، الى تقليد عالم
قصائد بيكر، اما مباشرة او من خلال مؤلفات انتونيو متشادو. وعلى
هذا نرى بعض الشعراء امثال (ليوبولد بانيرو Leopoldo Panero) و
(بيثنته غاوس Vicente Gaos) و (كارلوس بوسونيو Carlos Bousoño)
و (خوسيه لويس كانو José Luis Cano) - ونكتفي بذكرهم - قد
اخذوا يسيرون في الطريق الشعرية المليئة بالاسرار التي شتها بيكر
وانارها بمصاييح عبقريته.

ان اثر بيكر في الشعر الحديث سيبقى غير قابل للنسيان، لانه
تاريخ دائم للاتصال والابداع والجمال.

خواكين بنيتو دى لوكاس

(١) د. الونسو - ذكر سابقا - ص ٢٥-٦٢ .

اعرف نشيدا ضخما وغريبا
ينبئ في ليل الروح عن فجر
وهذه الصفحات هي الحان من هذا النشيد
ينشرها الهواء في الظلال.

احب ان اكتب هذا النشيد، مروضا في الانسان
اللغة المتمردة، واللغة الفقيرة،
بكلمات تكون في الوقت نفسه
تنهدات وضحكات، الوانا والحانا.

ولكن الكفاح لا يجدي، اذ لا توجد الفاظ
قادرة على استيعاب هذا النشيد،
وبالكاد استطيع، يا جميلتي،
اذا امسكت بيدي يديك،
ان اغنيه لك وحدك.

لا تقل ان القيثارة قد صمتت
بعد ان جفت كنوزها، لانها لم تعد تجد
نعمة تعزفها،
قد لا يوجد شعراء، ولكن الشعر
سيوجد دائما.

ما دامت موجات النور في القبلة
تنبض ملتبهة،
وما دامت الشمس تكسو الغيوم الممزقة
بالنار والذهب؛

وما دامت الرياح تحمل في احضانها
العطور والانغام،
وما دام يوجد في العالم ربيع
فسيجد الشعر.

وما دام العلم يبحث، دون ان يتوصل
لاكتشاف ينابيع الحياة،
وما دام يوجد غور في البحر او في السماء
يقاوم التقدير؛

وما دامت الانسانية تتقدم دوما
دون ان تعرف الى اين تسير،
وما دام يوجد سر للانسان
فسيووجد الشعر،

وما دمنا نشعر بان ارواحنا تفرح
دون ان تضحك شفاغنا،
وما دام الانسان يبكي دون ان تستطيع الدموع
ان تسدل الغيوم على حدقتي عينيه؛

وما دام القلب والعقل
مستمرين في الصراع،
وما دام يوجد امل وذكريات
فسيووجد الشعر.

وما دامت توجد عيون
تعكس العيون التي تنظر اليها،
وما دامت الشفاه تجيب بتأوه
على الشفاه التي تتأوه؛

وما دام بإمكان روحين ان تشعرأ
بانهما اندججتا في قبلة،
وما دامت توجد على الارض امرأة جميلة
فسيووجد الشعر.

في زاوية مظلمة من البهو،
 قبعت القيثارة
 صامتة، ومكسوة بالغبار.
 - قد يكون صاحبها نسيها فيها -

كم من نعمة نامت في اوتارها
 كما ينام العصفور بين الغصون،
 بانتظار يد ثلجية
 تجيد استلالها.

وفكرت: آه، كم من مرة نامت العبقريّة
 كذلك في اعماق الروح،
 بانتظار صوت يقول لها:
 - كما قال المسيح لعازر -
 «قومي، وامشي».

اصادفها في الحياة احيانا
 وتمر بالقرب مني،
 تمر باسمه، فأتساءل:
 - «كيف يمكنها ان تضحك» .

وبعد حين تطل على شفتي بسمة اخرى
 - قناع لامي -
 فافكر عندئذ: «قد تضحك هي
 كما اضحك انا» .

- انا متأججة، انا سمراء.
 انا رمز العشق والهيام.
 روحي تطفح برغبة الممتعة.
 اتبحث عني؟ - كلا لا انشدك انت!
- جبهتي شاحبه، وضمفائري من ذهب.
 بوسعي ان اغمرك بفيض من سعادة لا نهائية.
 لدي كنز من الحنان.
 اتناديني انا - كلا لا اناديك انت!
- انا حلم، انا المستحيل.
 انا طيف باطل من الغيم والنور.
 انا روح، انا عديمة اللمس،
 انا لا اقوى على حبك! - آه تعالي أنت ... تعالي!

او تشكين، يا صغيرتي،
 لان عينيك خضراوان كالبحر؟
 ولكن عيون عرائس البحار خضر،
 وعيني مينرفا كانتا خضراوين،
 وكذلك كانت خضرا
 حدقات حوريات النبي.

الاخضر هو جمال الغابة
 وزينتها في الربيع.
 والقوس القزح يظهره مشعاً
 بين الوانه السبعة.

خضر هي احجار الزمرد،
 واخضر هو لون الامل،
 وكذلك امواج المحيط،
 وغار الشعراء.

وهذا خدك المبكر
 الشبيه بوردة يكسوها الصقيع،
 يبدو فيه قرمز الاوراق
 خلال اللاكيء.

ومع ذلك،
فأنا اعلم بأنك تشكين
لأنك تظنين
ان عينيك تجعلانك قبيحة،
لا... لا تظني ذلك،
فعيناك النديتان،
الخضراوان، القلقتان،
تظهران كوريقات اللوز المبكرة
المرتعشة تحت انفاس النسيم.

وهذا فمك الياقوتي
رمانة ارجوانية مفتوحة،
تدعو في الصيف
الى ارواء الغليل.

ومع ذلك،
فأنا اعلم بأنك تشكين
لأنك تظنين
ان عينيك تجعلانك قبيحة،
لا... لا تظني ذلك،
فعيناك المتألقتان تبدوان،
عند ما تغضبين،
كموج البحر الذي يتحطم
على صخور الشاطئ الكاسئابري.

وهذا جبينك الذي يتوجه الذهب المجعد،
المنسكب جدائل عريضة،
قمة ثلجية يعكس النهار عليها
شعاعه الاخير.

ومع ذلك،
اعلم بأنك تشكين
لأنك تظنين
ان عينيك تجعلانك قبيحة،
لا... لا تظني ذلك
فبين الاهداب الصهباء
لعينيك الواسعتين
يلتمع دبوس من الزمرد والذهب.
على فراء ابيض.

او تشكين، يا صغيرتي،
لان عينيك خضراوان كالبحر؟
قد تأسفين عليهما
لو صارتا سوداوين او زرقاوين.

حدقة عينك زرقاء
 يذكرني سناها العذب،
 عند ما تبكين،
 ببريق الصباح المرتعش
 الذي ينعكس على البحر.

حدقة عينك زرقاء
 اخال الدموع الشفافة فيها،
 عند ما تبكين،
 قطرات من الندى
 على زهرة بنفسج.

حدقة عينك زرقاء
 اذا اضاء في اعماقها
 ببريق خاطر كأنه قبس من نور،
 خلته نجما ضائعا
 في سماء المساء.

رأيتك لحظة، فبقيت صورة عينيك
 سابعة امام عيني،
 كبقعة مظلمة محاطة بالنار
 تسبح امام الناظر الى الشمس، وتبهز عينيه.

وحيثما وجهت نظري،
 ارى حدقتيك تلتهبان من جديد،
 ولا اجدك انت، بل اجد نظرتك،
 عينيك... ولا شيء سوى عينيك.

اراهما في زاوية غرفة نومي
 وحدهما، تلتمعان برهبة،
 وعند ما انام اشعر بهما
 تحيطان بي من كل ناحية.

انا اعلم بان للاموات
 نيرانا مشعة في ليل المقابر،
 تمضي بالمسافر الى الهلاك،
 واذني لاشعر بان عينيك تمضيان بي،
 ولكن... الى اين؟ - لا ادري.

ثوب عائم من الضباب الخفيف،
 وشاح مجعد من الزبد الابيض،
 نغم مرنان لعود ذهبي،
 قبلة فجر، موجة نور،
 هذه انت.

انت طيف هوائي،
 كلما احاول لمسك تتلاشين،
 مثل اللهب، مثل الصوت،
 مثل الضباب،
 مثل انين البحيرة الزرقاء.

معزوفة ترن في بحر لا شاطيء له،
 كوكب تائه في الفضاء،
 نواح طويل لهواء ابح،
 قلق خالد لبلوغ الكمال،
 هذا انا.

انا الذي اوجه عيني ليل نهار
في نزوعي نحو عينيك،
انا اعدو كالمعتوه دون كلل،
وراء طيف، وراء فتاة مضطربة
خلفتها رؤيا.

اليوم تبسم الارض والسماء لي،
اليوم يطاول عمق نفسي الشمس،
اليوم رأيتها... رأيتها... ونظرت الي،
اليوم آمنت بالله.

عند ما على الصدر تحنين
 جبهتك الحزينة.
 اخالك زنبقة كسيرة،

لان الله عند ما وهبك الطهارة،
 هذا الرمز السماوي،
 كونك على صورة تلك الزنبقة
 من ذهب وثلج.

تسألين، ونظراتك الزرقاء تغوص

في اعماق ناظري:

« ما هو الشعر؟ » —

أأنت التي تسألين؟ —

اولا تدرين بان الشعر ... هو انت؟»

لقاء نظرة منك ... اهيك العالم،
 ولقاء بسملة ... اهيك السماء،
 اما لقاء قبلة ...
 فلا ادري ماذا اهيك
 لقاء ... قبلة

انني اسير ضد مصلحتي حين اعترف بذلك،
ولكنني افكر كما تفكرين انت يا حبيبتي،
بان اية قصيدة لا تكون جيدة
الا اذا كتبت على ظهر ورقة مصرفية.

ولا يخلو الكون من ابله يبدي دهشته
حين يسمع بذلك فيقول:
انها لا تعدو ان تكون امرأة
من القرن التاسع عشر المادي المبذل.

سخافات ... اصوات تجعل اربعة شعراء
من الذين يلتفون شتاء بقيثاراتهم ... يتراکضون.
نباح كلاب على القمر.

انك تعلمين وانا اعلم
بان الشعراء الملهمين في هذه الحياة، نادرون.
اما بالذهب، فبوسع اي انسان ان يصنع الشعر.

لوحث في عينيها دمة
وعلى شفتي جملة اعتذار؛
تكلمت الكبرياء، فجففت دموعها،
وماتت الجملة على شفتي.

انني اسير في طريق وهي تسير في آخر؛
ولكن، حين نفكر في حبنا المتبادل،
اقول انا: «لماذا سكت في ذلك اليوم؟»
وتقول هي: «لماذا لم أبك؟»

اضحى هوانا مسرحية مفاجئة
مزجت اسطورتها الحرقاء
الهزل بالجد،
وانتزعت الضحك والبكاء

ولكن شر ما في هذه الحكاية،
ان الدموع والضحكات، في خاتمة النهار،
كانت من نصيبها،
ولم يكن من نصيبي
الا الدموع.

مرت جارقة بجمالها
 وافسحت لها الطريق،
 دون ان استدير لانظر اليها،
 ومع ذلك
 همس شيء في اذني قائلاً:
 انها هي --

من وصل الليل بالنهار؟
 لا ادري... كل ما أدريه
 هو ان الاشفاق (١) اجتمعت
 في ليلة صيف عابرة
 فأبدعتها هي

انها مسألة كلام،
غير أننا لا نتفق ابدأ،
أنت وأنا،
بعد الذي حصل،
على من تقع تبعة الخطأ،

آسف الا أجد للحب
معجماً يعلمني:
متى يكون صلفك مجرد خيلاء،
ومتى يكون عزة ورفعة.

لم اعجب من نسيانك لي،
 اذ كان عجبني أشد
 يوم أجبتني.
 لم اعجب من نسيانك لي،
 لان ما في ذاتي من شيء ثمين
 لا تستطيعين
 حتى ان شعري به.

لماذا تقول لي هذا؟
 انا اعلم بأنها متقلبة،
 وبأنها متشاحنة، وبأنها متباهية، وبأنها لعوب،
 انا اعلم بان المياه ستنفجر من الصخر المجدب
 قبل ان تنبع العاطفة من نفسها.

انا اعلم بأن قلبها - عش الافاعي -
 لا يحوي اي عرق ينبض بالحب،
 وبانها تمثال عديم الحياة، ولكن...
 يالروعة جمالها!

كنت العاصفة،
 وكنت البرج العالي
 الذى يتحدى قوتها،
 كان عليك ان تتحطمي،
 او تهدميني،
 لذلك كان حبنا مستحيلا.

كنت المحيط،
 وكنت الصخرة المنتصبة
 التي تتحمل بشتات مده وجزره،
 كان عليك ان تتهشمي
 او تقتلعيني،
 لذلك كان حبنا مستحيلا.

انت جميلة، وانا متشامخ،
 وقد اعتدنا:
 انت ان تقودي وانا الا انحني،
 - والدرب ضيق والصدام محتم -
 لذلك كان حبنا مستحيلا.

عند ما اخبروني بذلك شعرت ببرودة
خنجر فولاذي تمزق احشائي،
واستندت الى الجدار، وفي لحظة
فقدت شعوري بالمكان الذي كنت فيه.

وهبط الليل على افكاري،
وغرقت نفسي في الغضب والشفقة...
وعندئذ علمت لماذا يبكي الانسان،
وعندئذ اذركت لماذا يقتل الانسان.

ومرت غمامة الالم... واستطعت بصعوبة
ان اتفوه بكلمات قصيرة...
- من الذي اخبرني؟ ... - صديق مخلص...
كان فضله علي كبيرا... فشكرته.

اقراً في اعماق ناظريك
 كما اقرأ في كتاب مفتوح،
 فلم يفتر ثغرك عن ضحكة
 تكذبها عيناك؟

اذرفي الدمع، ولا تخجلي
 من الاعتراف بانك احببتني قليلا.
 ابكي! فلا احد يرانا...
 وانظري الي: انا رجل... ومع ذلك فأنا ابكي!

ايتها الامواج الهائلة التي تنكسر مزججة
على الشواطيء المهجورة البعيدة،
لفيني بغطاء من الزبد،
واحمليني معك!

ايتها الاعاصير التي تقتلع الاوراق الذابلة
من الغابات العالية،
اسحبيني في الدوامة العمياء،
واحمليني معك!

ياغيوم العاصفة التي تحطمها الصاعقة
والتي تطرز اطرافها الشاردة بالنار،
اختطفيني وسط الضباب المظلم،
واحمليني معك!

اشفقي علي، واحمليني الى حيث الدوار
يقتلع مني ذاكرتي وعقلي!
رحماك! اني اخاف البقاء
منعزلا مع الآلمي.

طيور السنونو السوداء ستعود
لتبني على شرفتك اعشاشها،
وتضرب من جديد على نافدتك باجنحتها
وهي تلعب،
ولكن الطيور التي كانت تتمهل في طيرانها
لتنأمل جمالك وسعادتي،
والتي تعلمت اسمينا،
تلك... لن تعود ابدا.

سلطانة الغابة (١) الكثيفة ستعود
لتنسلق جدران حديقتك،
وتتفتح ازهارها من جديد في المساء،
بأبهى رواء،
ولكن الازهار الملىء بالندى
التي كنا نتأمل قطراتها وهي ترتعش
وترتمي كأنها دموع النهار،
تلك... لن تعود ابدا.

(١) نوع من النباتات المتسلقة، يطلق عليه اسم (زهر العسل) او (سلطان
الجيل او الغابة).

كلمات الحب المضطربة ستعود
لتدغدغ اذنيك من جديد،
وقد يوقظ رنينها
قلبك من غفوته العميقة،
ولكن لاتنخدعي
فان احدا لن يحبك،
جاثيا على ركبتيه بصمت وخشوع،
كما يعبد الله في مذبحة،
مثلا احبيتك انا.

هذا الهيكل المصنوع من العظم والجلد
قد تعب اخيرا من السير برأس مجنون،
لايدهشني ذلك، لاني، ولو كان صحيحا
انني لست شيخا،

قد استخدمت، وا اسفاه... الجزء الذي يصيبني
من حياة العالم، بصورة لاقسم معها
بانني قد كشفت قرنا في كل يوم.

وهكذا فلو يدركني الموت الان
لايمكنني القول بانني لم اعش،
لاني اعلم بان جسمي قد هرم من الداخل
وإن يكن يبدو فتيا من الخارج

نعم، لقد هرم الهيكل بالرغم من قدرتي
وجهدي المتألم ينبيء بذلك دائما،
اذ ثمة الم يحفر اثره الرهيب؛ حين يمر، في القلب
ان لم يحفره على الجبين.

احتفظت بألمي
 كما يحتفظ البخيل بكنوزه،
 وكنت احب ان اثبت ان هناك شيئاً ابدياً
 للتي اقسمت ان تحبني الى الابد.

وها انا اليوم اطلب المي دون جدوى.
 واسمع الزمن الذي افناه يقول:
 - «آه ايها الطين البائس، ليس بإمكانك
 حتى ان تتألم الى الابد.»

دهاني الليل... فلم اجد مأوى
يحميني،
وعطشت... فلم اجد غير دموعي
ترويني،
وأمضني الجوع... فاغمضت عيني الورمتين لعل الموت
يغذياني.

كنت في بيداء
وان يكن هدير الجماهير يغلي في مسمعي،
كنت يتيما وفي ضراء،
ولم يكن العالم بالنسبة لي
سوى مجرد صحراء.

نولد مع ومضة برق،
ويبقى وميض البرق مستمرا عند ما نموت.
الا ما أقصر الحياة!

المجد والحب اللذان نسعى اليهما
هما شجرا حلم نلاحقه.
والصحو هو الموت.

الصوت الاول

الامواج لها الموسيقى المبهمة،
 وازهار البنفسج لها الرائحة العذبة.
 والليل البارد له الضباب الفضي،
 والنهار له النور والذهب،
 اما انا فلدي شيء احسن:
 لدي الحب.

الصوت الثاني

نسمة تصفيق، غيمة مشعة،
 موجة حسد تلثم القدم،
 جزيرة احلام
 تستريح فيها الروح القلقة،
 نشوة عذبة:
 هذا هو المجد.

الصوت الثالث

الكنز جمرة متأججة،
والزهو خيال هارب،
والمجد والذهب: كلاهما باطل،
ان الشيء الذي اعبد
هو وحده الحقيقة:
انه الحرية.

هكذا غنى البحارة
هذه الاغنية الابدية، وهم يمرون،
وقفز الزبد على ضربة المجذاف
فجرحته الشمس.

وهتفوا بي: - «او تأتي معنا؟»
فقلت مبتسما، وهم يعبرون:
- «لقد فعلت هذا منذ زمن بعيد،
ولذلك ما تزال ثيابي منشورة على الشاطئ»
لكي تجف».

اصحح ان الروح تطير بسرعة،
 من السجن الذي تقطن فيه،
 عندما يلمس النوم عيوننا
 بانامله الوردية؟

اصحح ان الروح، ضيفة الضباب،
 حين تمس الليل الناعم الانفاس،
 ترتفع مجنحة الى المناطق الخالية
 لتجتمع بارواح اخرى؟

وهناك، حين تنفصم الاواصر الارضية،
 أتقطن ساعات قصيرة،
 في عالم الفكرة الصامت،
 متعرية من الشكل البشري،

وهناك ايضا... اتضحك وتبكي؟
 اككره وتحب؟ تحتفظ باثر للالم والفرح
 شبيه بالاثر الذي يتركه نيزك
 عندما يجتاز السماء؟

لا ادري اذا كان عالم الرؤى هذا
يعيش في ذواتنا او خارجها،
انما ادري انني اعرف اناسا كثيرين
لا اعرفهم!

في الرواق المهيب للمهيكل البيزنطي،
وعلى الضوء القلق
الذي يرتجف في الزجاج الملون،
رأيت القبر القوطي.

امرأة جميلة تستريح
فوق تابوت - اعجوبة من اعاجيب الازميل -
ويداها على صدرها
ممسكتان بكتاب.

حول جسدها الخفيف المستسلم
غرق السرير المرمري،
كأنه من الريش الطري
والمحمل الناعم.

واحتفظ وجهها،
من آخر ابتسامة، بالتألق الآلهي،
كما تحتفظ السماء
من الشمس المختصرة،
بالاشعة الهاربة.

وجلس ملاكان قريبا
على أطراف الوسادة الحجرية،
واصبعاهما على شفاههما
نفرضان الصمت حولهما.

لم تكن تبدو ميتة،
بل نائمة
تحلم بالفردوس،
تحت ظلال الاقواس الثقيلة.

واقتربت من زاوية الرواق المظلمة
كما يسير بخطى خافتة
قرب سرير فيه طفل ينام،

وتأملتها لحظة:
هذا التآلق الدافئ،
وهذا السرير الحجري الذي يمنح
مكانا فارغا قرب الجدار،

بعثا في الروح
الظما إلى اللانهاية،
والتعطش إلى حياة ما بعد الموت
التي تعتبر القرون مجرد لحظة عندها.

حيث اتعب من المعركة
التي احيائها، مكافحا،
اتذكر بحسد، احيانا،
هذه الزاوية المظلمة المضيئة.

اتذكر هذه المرأة الخرساء الشاحبة،
واقول لنفسي:
- آه! كم هو صامت هذا الحب، حب الموت!
وكم هو هاديء هذا النوم، نوم القبر!»

ملحوظة: انتهى من ترقيم هذه القصائد وفقا لطبعة المؤلفات الكاملة لبيكر في
مدريد عام ١٩٦١.

Depósito legal : M 15021/1965

IMPRENTA NACIONAL DEL BOLETIN OFICIAL DEL ESTADO.—TRAFALGAR, 29.—MADRID-10

2017-05-15 15:09:09